في ذكرى السياب

غريبٌ على الخليج .. يعنّي للمطر

بقلم صبري حافظ

اعتدنا ان تكون المراثي اشعارا ، ينثرها الشعراء بكاء فوق قبر الفقيد الذي لم يجف ترابه ، ولم ينصلب الاسمنت على فوهته بعد . يعددون فيها المناقب ويبعثرون الترحمات . غير اني هنا ، وقبل ان يجف الدموع ، او ينحسر التوهج العاطفي ، او يخلق الزمن مسافة كافية لوأد التحيز الانفعالي (*) لا استطيع ان اكتب عنه الان سوى مرثية ... اما الدراسة الموضوعية ، التي نعدد فيها ما له ونحاسبه على ما عليه ، فبعد المرثية موعدها وملكانها .

***

وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين غاب .. تدثرت بالصمت خطواته .. وفي وهاد الموت ، الذي طالما تذكره راجفا مرتعبا وهو في منفاه المرضي الاخير ، اختفى ... بعدما استطاع الشلل الكئيب الراعب الزاحف من القدمين ، والذي نشر الحزن والخوف والاسى في كل اعماله الاخيرة ، مواصلة الرحلة نحو الذرى .. وامتصاص اخر نفثات الحياة من اعماق اعظم شاعر عربي معاصر ... وسرى النبأ الحزين في كل الارقة .. وبارجاء عالمنا طاف ، وعلى كل الجباه ترك ميسمه ، وفي القلوب خلف الاسى .. مات بدر شاكر السياب ، الشعر والقلق والعذاب .. مات الغريب الواقف على الخليج ينثر اناشيده للمطر وللنخيل ولارض عراقه الجديبة . مات الانسان ولكن ظل الشاعر يطوف بكل البلدان ، ليخاطب اعمق ما في اعماق الانسان ، وليحفر لنفسه مكانا في كل مكان .

ومن خلال الاحساس الدامي بفجيعة الفقدان ، اتناول القلم لاكتب هذه الكلمات عن بدر شاكر السياب .. الشاعر والانسان . الهرقل الذي حاول طيلة حياته التي مزقتها نصال الغربة والعذاب ، ان يفك بروميثيوس الموثق . وان يمسح بكفه الرحيمة دموع عشتار ، او يبكي بين يديها الحبيب الذي وهب غيابه الاجداب والجفاف والخراب ... عن مغني تموز وعاشق أدونيس انحدث ، عن رفيق اوديسيوس في بحثه وعذابه ، وفرين بروميثيوس في نشوقه الظامىء الى الحقيقة ومعاناته من اجلها . عن شقيق غينميدا في الاختطاف المفاجيء والمعاناة إلداهشة لعالم يسفر كل لحظة عن وجه غريب وجديد .. عن بدر شاكر السياب اسوق الحديث ... ومعذرة ان كانت مرثيتي عن اعظم شعراء العربية في هذا العصر نثرا..فانا لا اعرف قول الشعر . حتى لو كنت بشاعر. ما كان بمقدوري ان اكتب عن بدر شعرا . فمراثي اعظم شعراء العربية في هذا العصر ، مهما كتبت شعرا ، لا بد وان تستحيل على اعتاب عالمه الى نثر .. ونثر فحسب .

ولن تحاول مرثيتي للسياب ان تنثر على قبره الترحمات . ولن تدعي لنفسها في الوقت ذاته القدرة على استنفاد كل ما تطرحه اعمال هذا الشاعر العظيم من رؤى وقضايا . ولا على تناول كل مـا تثيره الدراسة الموضوعية المقيمة لهذه الاعمال من نقاط . ولكنها ستحاول التعرف على حياة هذا الشاعر ، وعلى التناقضات الذاتية والمجتمعية التي وقفت في الخلفية من اعماله وانجازاته في شتى الميادين الابداعية التي مارس الابداع فيها . وستحاول الحديث عن الدور الذي اضطلع به السياب في حياتنا الادبية المعاصرة ، عبر مرورها التذوقي السريع على الكنوز التي اثرى بها مكتبة الشعر العربي الحديث . والتي وقفت في شموخ لترفع منارات الهداية لكل من يحاول الوصول الى مرافىء الشعر .

واي حديث عن بدر شاكر السياب لا بد وان يتمركز حول ذلك العناق الحاد بين احساسه الدامي بالاغتراب والوحدة ، وتوقه العميق الى سبر جوهر مملكة الحاضر ، والوصول توا الى منبع الشعر فيها. فحول هذا اللقاء دارت حياة السياب ، وعلى شقيه توزعت كل اشعاره. على مد المراحل المختلفة التي مرت بها رؤى الشاعر ، وعلى طـول الدواوين الستة التي جمعت فيها اشعاره . وقبل ان نتحدث عن هذا اللقاء المحوري الذي بعثر العذاب في حياة شاعرنا. سنحاول ان نتعرف على الخطوط العريضة لحياته ، وعلى الالوان العامة للوحة الحضارية التي شب وسطها .

***

ففي قرية جيكون ـ احدى قرى لواء البصرة ـ التي خلدها الشاعر عندما حفر اسمها ـ بعدما نثره عبر كل قصائده ـ في اعماق القراء وفي وجداناتهم . ووسط الظلام الكثيف الباسط جناحيه فوق عراق الاحتلال الجاثية تحت اقدام الانجليز .. واثناء دوامات الفليان الشعبي العراقي التي انتهت بتوقيع معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٠ .. وعلى وجه التحديد في عام ١٩٢٥ ولد بدر شاكر السياب ، لابوين لا نعرف ماهيتهما الطبقية ، ولكن الشيء الاكيد الذي نعرفه عنهما هو انهما كانا فقيرين . وعاش بدر طفولة حافلة بالبراءة في جيكور ... حيث يعانق النخيل في تلك القرية التي تعد واحدة من اجمل بقاع جنوب العراق.. الشط والرمال ، ويشرب في امسيات الشتاء المطر . وفي هذه الطفولة .. السعادة النسبية الوحيدة في حياة بدر .. شرب شاعرنا الحياة في القرية بكل جزئياتها . ونرسبت كل هذه الجزئيات ، عبر حدقتيه المبتهجتين بجمال الطبيعة ، في اعماقه .. وظلت هذه الصورة الطفلية المصعوقة بجمال الطبيعة المندهشة بحزنها الجليل ، هي صورة الطبيعة في اغلب قصائد السياب ، حتى في اكثرها حزنا واسى .. جميلة ، غافية ، مشرقة ومعربدة بالبهجة ومتشحة بغلالات من الحزن العريق الجليل في آن . ترد القارىء الى هذا العالم السحري المليء بالاسرار والعامر بالرؤى والاساطير .. عالم الطبيعة المشرقة الغافية والبراءة الطفولية الشديدة البساطة والمتناهية التعقيد معا .

ولم تستمر هذه السعادة لابعد من سنوات الطفولة .. فقد مزق صبا شاعرنا التشوف الى حياة اوسع ، والتعثر المختنق في شباك الابدي المجذوذة الاصابع ، والتي ابدا لا تطول المنى . ولم تكن الايدي

(*) كتبت هذه الكلمات عقب وفاة السياب بايام قلائل .. وحالت ظروف دون نشرها في حينها ، حينما اعتزمت نشرها في ذكراه الاولى، لم أرد ان اغير شيئا فيها . لانها تسجيل لنظارة صدمة فقدان هذا الشاعر العظيم وحدتها .. وتكثيف لانفعالي بها وقتها . (ص)

مجذوذة الاصابع من الفقر الجديب فقط ، ولكن ايضا من فقدان الوسامة .. فما كان شاعرنا وسيما ، وما كان باستطاعته في صباه ان يهتم لفقدان الوسامة ذاك .. ولكن حاصرته هموم هذا الفقدان في مطلع الشباب .. استدعتها الى الاعماق منه خفقات القلب المتشوف الى المغامرة وطعم الحب . وخاصة في تلك الفترة التي كان فيها بدر طالبا في الجامعة ... كان هذا في مطالع الاربعينات من هذا القرن او في منتصفها . وكانت اروقة الجامعة تشهد الاختلاط منذ فترة جد قصيرة. وكان يرين على اروقتها وباحاتها ذلك التوتر المتوهج الذي يصاحب بدايات الاختلاط في مجتمع رزح طويلا تحت نير الركود والجمود والعلاقات المريضة .. وكانت اسرة السياب الفقيرة قد عاشت واحدة من بطولات عصرنا الصغيرة حتى تتيح لابنها فرصة الوقوف على قدمين في خضم الجامعة ، حيث يتعمق فقر الفقراء ويبرز حدته ... وكان تشوف شاعرنا بعدما تفتحت الموهبة الشعرية في اعماقه ، الى عالم ارحب مدى قد بلغ ذروته ، وبلغت حساسيته درجة عالية من الرهافة وحدة التأثر ... ومن جماع كل هذه الاشياء ارتوت اغاريد السياب اليائسة للحب . والتي اكتظت بها صفحات مخطوطته التي لم تنشر (ديوان شعر كله غزل) وكله تقريبا من الشعر التقليدي ، واول دواوينه المنشورة (ازهار ذابلة) . وحومت اغلب هذه القصائد حول المنطلق الرومانسي لاغاريد الحب .. اذ كان يكفي ان تلمس حسناء كتفشاعرنا في احدى باحات (كلية التربية) لتسأله في حياء عن موضوع المحاضرة التالية . او تخبره بأنها قرأت اخر رسائله او اعجبت بها . او تصوب له نظرة ناعسة في احد دهاليز مبناها . او تتريث الى جواره وتحدثه قليلا في احد مماشيها الرفيعة الطولة . حتى تتحول داخل القصيدة الى ... شقيقة روحه .. ومعبودته .. وفينوس المتنعمة على البشر بنظراتها الحنونة .

لهذا سقط بدر في الحب سريعا . ولاحق الحسناء التي اعجبت في البداية بقصائده ، بعشرات القصائد المتناهية العذوبة والرقة ... وكما سقط في الحب سريعا ، افاق سريعا على الفاجعة .. بعدما تزوجت شقيقة روحه (؟!) من احد سراة العراق اثر اول تلويحة بالثراء . ونبهته الفاجعة الى اشياء عديدة ... الى ضرورة الا يمعن في الابتعاد عن الشاطىء ما دام لا يملك سوى مجدافين من قش. والى ان فوادم الاحلام المتكسرة لن تقوده ابدا الى العالم الارحب الذي طالما تاق اليه ... والى ان يديه المجذوذة الاصابع بالفقر وبفقدان الوسامة لا بد وان تعثرا على طريقة جديدة تمكنها من القبض على الامنيات الهاربة من بين الاصابع ... والى ضرورة ان ننقلب عيناه الحالمتان المشوفتان الى المجهول .. لتجوسا بداخله وترودا اطراف العالم من حوله بنظرة جديدة وفهم جديد ... وقصة البحث عن هذه النظرة الجديدة وهذا الفهم الجديد ، هي قصة السياب مع الشعر الذي رغب دائما ومخلصا في الوصول الى جوهره ، والى نبعه الرقراق المصفى .

وقبل ان نرافق خطواته في رحلته الطويلة مع الشعر والكلمات.. سنتلمس بسرعة بقية ابعاد المرحلة الجامعية في حياة السياب، ففيها كانت بذور هذه الرحلة والروافد التي ارتوى منها بالزاد لهذه الرحلة الطويلة المريرة ... فقد التحق السياب بدار المعلمين العليا عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وهو نفس العام الذي تخرجت فيه منها الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة .. فلحق بنازك وهي في عامها الاخير بهذه الدار ثم لحق به البياتي في العام التالي ورافقه رحلته فيها ، مخففا عليه بعض وطء هذه الرحلة وبعض جفافها . فكان عبد الوهاب يأخذ رأي بدر في اشعاره وكان بدر يقرأ على عبد الوهاب قصائده ... بل لقد ساعد عبد الوهاب بدرا على تجاوز اسوار هذه المرحلة الغزلية المغرقة في الرومانسية دون ان يدري .. وذلك عبر ثرثراته السياسية المتعددة وعبر اهتماماته الدائمة بالقضية الوطنية .. وعموما نقول ان صداقة السياب والبياتي قد اثرت على شعر كل منهما وسارعت في انضاج محاولاتهما الشعرية ... وقد رافقت سنوات الدراسة هذه خروج العراق من انخراطها الجائر في الحرب العالمية الثانية التي شملتها كنير من اثارها .. بكل ما صاحب هذه السنوات من اضطراب وتوتر .. بلغ ذروته خلال انتفاضة عام ١٩٤٨ واضرابانها الوطنية ضد معاهدة بورتسموث المعقودة بين العراق وبريطانيا والتي اشتهرت وقتها باسم معاهدة بيفن - جبر حيث نمت ابان وزارة صالح جبر العميلة... وصاحبت هذه الفترة ايضا بداية نضج وتبلور الاتجاهات اليسارية على الصعيدين الفكري والسياسي .. وبدأت في خوض معاركها المختلفة في مجالات الثقافة والسياسة والفكر والفن . كما رافقت هذه الفترة - والاعوام التالية لها - بداية تنامي حركة التحرر الوطني على الصعيد العالمي ، وانتصار الثورة الاشتراكية على مبعدة بلدين من العراق .. في الصين ، وخروج الاتحاد السوفياتي من عزلة البناء الطويلة.. كما شهد تهذه السنوات على الصعيد الفني بداية حركات الفن وثورانه للتملص من قيود القديم والخروج من اقبيته المعتمة والمستهلكة سواء على المستويين العربي او العالمي .

كل هذه العوامل المتشابكة والمتفرقة في آن ، ساهمت في صوغ ابعاد المناخ الحضاري الذي تشكل فيه السياب ، والذي خرج عبره من سراديب المرحلة الغزلية المفرطة الرومانسية ... وساهمت فيه ايضا طبيعة المناهج الدراسية التي كان السياب يتلقاها في دار المعلمين العليا - كلية التربية - والتي كانت تركز بصفة اساسية على القيم التراثية سواء في الادبين العربي او الاجنبي .. وكانت مناهج هذه الدراسة مترعة بالمحفوظات الشعرية التي شملت المتنبي وابا العلاء والبحتري وابن الرومي وابا تمام وامرأ القيس وغيرهم من كبار شعراء العربية وفطاحلها ، الى جانب شيللي وبيرون وكيتس وكولريدج ووردزورث واغلب الرومانسيين العظام ، مع كبار الرمزيين من امثال بودلير وفيرلين ورامبو وفاليري وريلكه وغيرهم .. وعبر تطوافه الحساس الطويل في عوالم هؤلاء الشعراء العظام بدأت اولى خطوات رحلة السياب الطويلة المريرة على درب الشعر والكلمات .

***

فبعد ان ذرت الفاجعة انقاض المرحلة الرومانسية التي مزج فيها السياب ما شربه من غنائية علي محمود طه وابراهيم ناجي ومعروف الرصافي ، بجزالة الشعر العربي القديم ، بدأ بحثه العظيم عن رؤيا.. عن مفهوم متكامل وجديد للعالم والانسان .. غير ذلك الذي تتحول فيه لامسة الكتف الى شقيقة الروح ثم معذبتها .. مفهوم يرتاح اليه ويحقق عبره تشوفه الى العالم الارحب الذي تذوب على شطآنه كل عذابات اغترابه وحنينه الى التآلف مع جزئيات عالم مبرر ومريح ... ولان السياب كان مخلصا في بحثه العظيم عن رؤيا .. ورؤية شعرية على وجه التحديد .. شمل نطاق بحثه الشكل كما شمل المضمون . فكان السياب من اوائل المجددين في الشعر الحديث . بل هو اول الشعراء العراقيين في هذا المضمار . اذ بدأ مفهوم القصيدة الجديدة يتحدد على ايدي السياب ، وعبر انتاجه الشعري وصل هذا المفهوم الى ارق وارقى اشكاله واثراها .. وقد رافقه هذا النضوج الفني اهتداء الشاعر الى الرؤيا التي كان يبحث عنها ، والتي علق على مشجبها كل همومه الذاتية والمجتمعية . فلما بدأت اولى مراحل شاعرنا الالتزامية ، والتي رافقها ارتياح الشاعر الى هذا المشجب الذي علق عليه كل همومه .. بدأ التألق الفني في الظهور في اعمال السياب والتعمق فيها . فقد وهبه الارتياح الفكري الى الرؤيا التي وفق اليها، قدرا كافيا من الانصراف الى التجويد الفني لقصائدها والاهتمام ببنائها الشعري والشعوري . ساعده في ذلك رحابة هذه الرؤيا واتساع افقها وعمق تفهمها لكافة ابعاد الحياة وتقديمها للاجابات المعقولة والمنطقية على شتى تساؤلات الشاعر وعلى جل تطلعاته . فوهبته راحة الرؤيا تلك طاقة هائلة للانطلاق نحو منابع الشعر ومحاولة الغوص الى ما في اعماق اغواره من رؤى واساطير ... كما ادى ولع الشاعر بهذا الاهتمام بجوهر الشعر الى الانفتاح على عطاء الشعر العالمي يشرب منه الى حد الارتواء .. وكان السياب اذا استثنينا لويس عوض اذا ما

اعتبرناه شاعرا – اول الشعراء المحدثين اهتماما بالشعر العالمي واعمقهم احتفاء به واستفادة منه ، واسبقهم مبادرة الى التأكيد على اهمية بالنسبة لشعر عربي يريد ان ينهض من سبات طويل وعميق .

ولم يقف اهتمام السياب بالشعر العالمي ، وبيقنه من ضرورة استيعابه والاستفادة بما وصل اليه من تجارب تعبيرية ومجتمعية، عند حدود القراءة والفهم . بل جاوزه الى افاق الاستيعاب والتمثل والترجمة . فكانت مجموعة القصائد المترجمة التي صدرت لبدر في بغداد عام ١٩٥٤ تحت عنوان (قصائد مختارة) من اول المختارات الشعرية المترجمة ... بل لقد سمع قراء العربية فيها لاول مرة اصوات عدد كبير من شعرائها العصريين ... وهم : ت.س. اليوت ، مونتال ، غارسيا لوركا ، ناظم حكمت ، رابندرانات طاغور ، اديث سيتويل ، بابلو نيرودا، ستيفن سبندر ، سكليانوس ، كامبر ، مارين ، لويس ، ريلكه ، عزرا باوند ، جيوفانيني ، والتر دي لامبير ، جاك بريفير ، كرمل ، ارثر رمبو وفيلبشر ... ومن الواضح انه ليس ثمة رابطة واحدة يمكنها ان تجمع كل هؤلاء الشعراء على اختلاف مشاربهم ، وبرغم تباين تصوراتهم للعالم وفهمهم له ، بين دفتي كتاب واحد ، سوى احتفائهم جميعا بجوهر الشعر ، وبراعتهم في الوصول الى مرافئه .

وقد استطاع اهتمام السياب الشديد بالشعر العالمي ، ان ينعكس على انتاجه الشعري ، وان يترك اصابعه نضجا ومقدرة على قصائده ، مؤكدا ضرورة ان يكون الشاعر العظيم ، مثقفا عظيما .. كما استطاع السياب بثقافته العظيمة في الشعر العالمي والتي لم تصرفه ابدا عن الاهتمام بذخائر الشعر العربي القديم ونفائسه ، فما اعلى صوت الموروث الشعري في قصائده ، ان يثري الشعر العربي وان يدخل فيه عشرات الابنية والتصورات ، ويؤصل فيه اكثر القيم اقترابا من جوهر الشعر ، مع محافظته خلال كل هذا على ان يكون اكثر الشعراء اقترابا من روح الشعر العربي القديم ، واوثقهم صلة به واعمقهم اخلاصا له ، دون ان يكون ذلك باي حال على حساب التصاقه بوجدان اللحظة التاريخية والحضارية التي صدر عنها وعبر خلالها عن احلام شعبه وامانيه . وقد تجلت رغبة السياب في الاخلاص للشعر العربي ، والتي عانقت توقه الى تجديده وايقاظه من سباته القديم الطويل ، في المحافظة على روح الشعر العربي القديم والاقتراب الدائم من جزالته والتحويم بالقرب من رصانته العليدية ، وفي احيائه للكثير من الكلمات العربية الاصيلة ، وحرصه على نقية لغته من الالفاظ الهجينة . كما تأكدت رغبته في بث دماء جديدة داخل عروق القصيدة العربية ، في البناء الملحمي للقصيدة والذي قدم السياب افضى اشكاله وارقاها في الشعر العربي الحديث عبر (المومس العمياء) و (حفار القبور) و (فاتلة الضياع) .. وفي الاقتراب بالقصيدة من جوهر التراجيديا دون افقادها شفافية الشعر وعذوبته كما في (نبوءة عام ١٩٥٦) و (سفر ايوب) و (من ليالي السهاد) و (منزل الاقنان في جيكور) و (انشودة المطر) .. وفي البناء الاسطوري المحكم للقصائد والذي لا تقوم فيه الاسطورة بدور اداة التشبيه الساذجة ، بل تستحيل الى الخيوط الناسجة لسداه المنهج التعبيري ولحمته ، والذي يكشف الشاعر خلاله كل الجزئيات الرامزة الى ابعاد المأساة الانسانية التي يعاصرها انسان عراقه الجديدة ، كما في (مدينة بلا مطر) و (مرثية الالهة) و (حدائق وفيقة) ... وفي استخدامه لاكثر من تفعيلة عروضية في القصيدة الواحدة ، وانتقاله من بحر الى اخر بحسب الانتقال بين جزئيات التجربة الشعرية والانسانية ... وفي خروجه بالشعر الحديث من اسار البحور العروضية التي كاد يصاب بالاغماء من كثرة دورانه في اقبيتها المستهلكة الى حد الابتذال ... وفي اهتمامه المبكر – على الشعر العربي – بان يكون جرس الالفاظ صدى لمعناها ، والذي يعد استخدامه لاكثر من بحر عروضي في القصيدة الواحدة ، استجابة لرغبته في الانتقال من قالب موسيقي الى اخر ، حتى يستوعب النفحات الجرسية المتنوعة التي يتطلبها البناء المعقد للتجربة الشعرية ... وفي محافظته الدائمة على وحدة التجربة ، وكبحه جماح الرغبة الملحاح في الانسياق التلقائي خلف تداعي الخواطر الشعرية ، والذي يسقط بكثير من شعرائنا المجيدين في هاوية الثرثرة والنثرية ، فالشعر تركيز .

ولا يعني هذا ان قصائد السياب كانت خالية من السقطات والهنات تماما .. فالذي يهمني هنا هو التركيز على الاضافات الحقيقية التي اثرى بها السياب الشعر الحديث . فلست في معرض تقييم نقدي لانتاج السياب وحصاده الشعري ، ولكني هنا في معرض رثاء له وتأكيد على الجوانب الاكثر فعالية في شعره وايجابية ... وقد ركزت في السطور السابقة على انجازات السياب – في حقل الشعر – المتسمة بالعمومية، وعلى الاضافات التي اثرى بها صرح الشعر الحديث الوليد ، واقامه عليها ، دون التعرض للطابع الخاص للسياب والمذاق المميز له ... لذلك لم اتحدث عن الحس الفلكلوري المتغلغل في كثير من قصائده.. ولا عن محاولته الدائمة للاقتراب من جوهر الرؤية الشعبية واحتضانه لها وخاصة في اثري مراحل انتاجه الشعري واخصبها ، اقصد مرحلته الالتزامية الاولى .. ولا عن احتفائه الخاص بالالفاظ والتراكيب القرآنية .. ولا عن تحويمه كثيرا بالقرب من البناء القرآني للصورة .. ولا عن براعته في تحقيق الالتحام بين المأساة الذاتية والمأساة القومية من خلال البناء الاسطوري المحكم للقصيدة .. فكل هذه من سمات السياب الشديدة الخصوصية والمميزة له والمكونة لطعمه الفريد .. والتي نستطيع ان نتلمسها عبر مراحله التطورية المختلفة .. ولا سيما في المرحلة الالتزامية الاولى ، والتي تشمل اغلب قصائد اروع دواوينه (انشودة المطر) وهو ثالث ديوان للسياب .. وكان الثاني بعنوان (اساطير) لصيقا بالديوان الاول وان اطلت عبره تباشير الديوان الثالث الكبير.. في هذا الديوان – (انشودة المطر) – استطاع الشاعر ان ينزع عن كاهله تماما كل ظلال الغنائية الرومانسية التي توشحت بها كل قصائد (ازهار ذابلة) واغلب قصائد (اساطير) .. وان يحلق قريبا جدا من جوهر الشعر .. وان يغني عبر البناء الاسطوري المحكم ، كل الجزئيات المتناهية الصغر والتي تصوغ ببراعة ابعاد المأساة العراقية ..

عذارانا حزانى ذاهلات حول عشتار
يفيض الماء شيئا بعد شيء من محياها
وغصنا بعد غصن بذبل الكرمة
بطيء موتنا المنسل بين النور والظلمه

فيقدم من خلال عذارى العراق المتحلقات في ذهول حول عشتار الذابلة وسط صحراوات الجدب والجفاف والموت البطيء الزاحف على كل شيء ، مأساة العراق .. عراق فاضل الجمالي ونوري السعيد الرازحة تحت اقدام الحكم العميل ونحت وطأة المواضعات الاجتماعية الجائرة .. التي تدفعه حدة تناقضاتها السافرة دونما خجل الى الصراخ ..

وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول حولها بشر
مطر .. مطر .. مطر ..
وكل عام حين يعشب الثرى نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع

.. ان احتجاج هذه الصور الطافحة بالاسى المجللة بالاحزان العميقة والكثيفة الى ادنى تعليق ، بل هل باستطاعة اي تعليق ان ينقل شحنة الغضب الهائلة التي تتوتر بها جزئيات هذه الصور .. حيث تصبح الرحى هي المركز وحولها البشر الدائرون كثيران السواقي المعماة في فلك هذه الرحى الدائرة وسط انهمار المطر الاحتجاجي لتطعم الغربان والجراد .. حيث يظل الجوع عملاقا برغم اخضرار الثرى وليس بسبب اجدابه .. الجوع الدائم المستمر المطل عبر كل حول .. ولم يكتب السياب هذه القصائد بعد انحسار الحكم العميل الذي ازدهرت معه المواضعات الجائرة .. فالسياب لا يؤمن بضرب الجثث الميتة ولا

بمصارعة طواحين الهواء .. ولكنه كتبها والحكم العميل في اوج مجده .. في اعوام ٥٤ ، ٥٥ ، ١٩٥٦ .. سربلها آنا بالاسطورة ، ولفها آنا اخر برداء من النفي باغترابه وضياعه وسط عالم جائر مخمل ، ووسط النخيل الجميل المنساب على شطآن جيكور يشرب المطر .. راسما للمفارقة ومعمقا لها ..

اعلمين اي حزن يبعث المطر
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع
بلا انتهاء ـ كالدم المراق ، كالجياع
كالحب ، كالاطفال ، كالموتى ـ هو المطر

فتركيز السياب على جمال الطبيعة في هذه المرحلة ، نوع من تأكيد هذا الجمال النقي ازاء القبح والجور ، وتعميق للاحساس ببشاعتهما في الان نفسه ... كما كان لتأكيده على المطر في تلك المرحلة الاف الدلالات ..

ولفني الظلام في المساء
فامتصت الدماء
صحراء نومي تنبت الزهر
فانما الدماء
توائم المطر

فاقترن المطر في شعره بالدم وبالرعب وبالارق وبالدموع وبعذابات الرحيل وبالحنين الى الاحباب .. وبالخوف من الوحدة والوحشة والظلام .. واصبح المطر في الان نفسه بلسما ينكأ الجراح .. وعلة نتعلل بها حذر الخوف ..

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا ـ خوف ان نلام ـ بالمطر
مطر .. مطر .. مطر ..

وهو ايضا مرفأ الافراح والضحكات .. وواهب الطبيعة ألقها وبهاءها وجمالها .. عدو الجدب وقرينه في آن .. وواهب الاطفال البهجة والضحكات واغنيات للمطر الصغيرة .. هو هذا معا وهو ايضا مفجر كل هذه الكنوز

ونرفع للسحاب عوننا : سيسيل بالقطر
وارعدت السماء فرن قاع النهر وارتعشت ذرى السعف
واشعلهن ومض البرق ازرق ثم اخضر ثم تنطفىء
وفتحت السماء لفيئها المدرار بابا بعد باب
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىء
تكلله الفقائع ، عاد اخضر ، عاد اسمر ، غص بالانغام واللهف
ونحت النخل حيث ظل تمطر كلما سعفه
تراقصت الفقائع وهي تفجر ـ انه الرطب
تسافط في يد العذراء وهي تهز في لهفه

.. وظل السياب يركز على هذا الرمز الثري بالايحاءات ، حتى نجح من كثرة الحاحه على الرمز الكامن في هذه الصورة الشعرية الثرية، في ان يربط بين اسمه وبينه ... حتى اصبح المطر اذا ما ذكر في الشعر ، يذكر معه السياب .. واذا ما ذكر في قصائد السياب يستدعي الى اعماقنا الاف الرؤى والايحاءات .. يستدعي الجدب والدماء والجوع والحزن والوحشة .. يستدعي تموز وعشتار واتيس ولعازر وعشرات الرموز المرتبطة في اعماق الاساطير بالخصب والعطاء والعذاب في آن .

وكما غنى السياب قضايا بلاده في هذه المرحلة الالتزامية .. غنى ايضا قضايا العالم العربي كلها ... ذلك العالم المثقل وقتها بالاف القضايا والمشاكل .. الرازح تحت عشرات الضغوط .. المزق بين براثن المتناقضات المتعددة ... ذلك العالم الهائم بين يافا ووهران .. المزق على الجبال هنا وهناك ..

اله محمد واله ابائي من العرب
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوار
وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار
وابصرناه يهبط ارضنا يوما من السحب
جريحا كان في احيائنا يمشي ويسجدي
فلم نضمد له جرحا
ولا ضحى
له منا بغير الخبز والانعام من عبد

وانسان هذا العالم ممزق ايضا .. مدرك لوعورة المرقى الى الجلجلة .. حيث تدمي الاشواك الاقدام ثم ينتظر الجسد الصلب للخلاص .. قادر على تحمل اعباء اكاليل الشوك ووخزات الحصى.. من اجل احياء لعازر الذي مات مذ امد طويل ودبت الديدان فوق جثته .. انه سيزيف المدرك لفداحة المسئولية والعذاب ولثقل الصخرة .. فالصخرة هنا هي الاخرون .. هي المسئولية عنهم .. مستقبلهم.. ايقاظهم من هذا السبات العميق الطويل ..

وعر هو المرقى الى الجلجله
والصخر يا سيزيف ما اثقله
سيزيف ان الصخرة الاخرون
هذا مخاض الارض لا نيأسي
بشراك يا اجداث حان النشور
بشراك في (وهران) اصداء صور
سيزيف القى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على (الاطلسي)

لكل هذه القضايا العربية غنى السياب .. لبور سعيد ولوهران .. ولكفاح الشعوب العربية من اجل استقلالها وحريتها .. وايضا لقافلة الضياع المتسوقة الى يوم العودة ...

لم يخرجونا من قرانا وحدهن ولا من المدن الرخيه
لكنهم قد اخرجونا من صعيد الادميه
فاليوم تمتلىء الكهوف بنا ونعوي جائعين
ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخور
سوى هباب ما نقشنا فيه من اسد طغين
ونموت فيها لا نخلف بعدها حتى قبور
ماذا نخط على شواهدها ؟ ..
أ ... كانوا لاجئين »

لكل هذه القضايا كتب السياب قصائده .. واستطاع عبر هذه القصائد ان يوفظ الشعر وان يفجره بكل قضايا شعوبنا العادلة والشريفة .. غير انه لم يتمكن من مواصلة رحلته مع الشعر الى الذرى .. ولاسباب كامنة في اعماق قصائد هذه المرحلة ذاتها . ومع سقوطه في المرض ، الذي اعقب بدايات الاجداب الشعري ورافق تيقظ الاحساس المرير بالاغتراب والوحشة ، سقط في وهاد الغربة وفقدان الرؤية.. وبدا كتجسيم حي لشاعر كبير يصرخ في اعماق بئر مظلمة ويتخبط في اقبيتها الموحشة وسراديبها النحاسية الرنين .. وجاء ديوانه الرابع (المعبد الغريق) تسجيلا لحالة شاعر ينثر ابتهالاته في اروقة معبد غريق بالفعل .. ويتأرجح بين السقوط الدامي والتشبث الضاري بالعالم الرحب الفسيح الذي يتخفف على شطآنه من كل الهموم .. والشيء الاساسي الذي انقذ هذا الديوان ، هو اخلاص الشاعر وصدقه في تصوير حالة التأرجح الكئيبة تلك .. بعدما تيقن من ان الخواء يعبق في كل الارجاء .. وبعدما حاصر الاجداب كل ابعاد عالمه حتى اضحت..

المومس الاجيرة الحقيره
اكثر من حبيبتي سخاءا
انيتها مساءا
معانقا ، اعانق الهواءا
هب من القطب على الظهيره
مقبلا عيونها الخواءا

وحتى استحال هو ، وسط اقبية المعبد الغريق الموحشة وسراديبه، الى مجرد دون كيشوت فاقد لابعاد الرؤية الصحيحة .. تلعب الخيالات

بعقله المسوس فيجهز بسيفه الطائش على حصاد الخصب قبل اي شـــيء ..

كأنني كيشوت في الاصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الاعداءا

... ثم جاء الديوان الخامس (منزل الاقنان) بكل ما فيه من ظلال صوفية ، ومن تشبث يائس مرير بالحياة ، ومن احساس متوهج حاد بافتراب نهاية الغريب الذي طالما غنى على الخليج للمطر .. ومن شبق عارم الى العراق والبيت والابن والاستقرار والراحة .. ومـن ارتعاش داخلي حاد ازاء الضوء والالوان المبتهجة المشرقة .. ليسجل عبر كل هذا به ، الانعطاف الجديد الذي اسفر عن وجهه الكامل فـي الديوان الاخير (شناشيل ابنة الجلبي) .. والذي استرجع فيه الشاعر من شرفة الفناة البصراوية ، صوته الاول ، وجزء من رؤيته للعراق ولمأساته الذاتية في آن .. واستعاد عبره شغفه الطفولي العذب بالنخيل والمطر المكنوز بالاسرار ، وعالم جيكور الحافل بالبـــراءة والجمال ، والبؤس والعذاب معا ... وان اكتظ الديوان باغنيات المرض والعذاب .. وحلق في سماء اغلب قصائده احساس فاجع متشائم .. وتجلت فيه نغمة واضحة من البؤس والحرمان والانين والشكوى .. وتشوف ظامىء الى صوت اليف او حتى رسالة ..

اني اريدك ، اشتهيك ، امس ثغرك في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترق الزوارق والنخوت
في ضفة العشار تنفض ، وهي لاهثة ، ظلاله
عل الرياح حملن منك لها رساله
لم تبخلين علي بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصموت؟
اني اذوب هوى .. اموت
واحن منك الى رساله .

بل يتجاوز به هذا الحنين العارم كل حد . ويدركه اليأس من صمم الاحياء المجسد لصمم العالم الكلي من حوله .. ويسهر الليل كله فـي انتظار الصوت الاليف ، ولكن الباب مـا قرعته غير الريح فـي الليل العميق .. فيستجدي صوت الام المتوارية تحت الرغام .. يأمل لو لم تمت ، لملأ صوتها عليه الحياة .. يصرخ ..

اماه .. ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار
لا باب فيه لكي ادق ، ولا نوافذ في الجدار
كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون
من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار ؟
كيف انطلقت بلا وداع فالصغار يولولون ،
يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون
ويسائلون الليل عنك ، وهم لعودك في انتظار ؟
الباب تقرعه الرياح لعل روحا منك زار
هذا الغريب !! هو ابنك السهران يحرقه الحنين
اماه .. ليتك ترجعين
شبحا ، وكيف اخاف منه وما امحت رغم السنين
فسمات وجهك من خيالك ؟
اين انت ؟ اتسمعين ؟
صرخات قلبي وهو يذبحه الحنين الى العراق ؟
الباب تقرعه الرياح .. تهب من ابد الفراق

.. ولكن .. يا لمرارة اليأس والوحشة والخواء وارتطام الرياح بالابواب دونما رحمة .. والقبوع مع الصمت وحيدا داخل الحجرات الموصدة .. والتمدد على اسرة المستشفيات ليل نهار في ملل وكآبة .. وآلام المرض والوحدة التي فيها ..

لم يبق صديق
ليزورك في الليل الكابي
والغرفة موصدة الباب

والتي يصرخ من الامها الموحشة الى الله ان يعيده الى الابن والاهل والدار ..

اعدني يا اله الشرق والصحراء والنخل
الى ايامي الحلوه
الى داري ، الى غيلان الثمه ، الى اهلي !

فليس باستطاعة احد ان يتلمس مدى العذاب الذي يعيشه ، بساقيه العاجزتين عن حمله وبتمرغه اليومي في اسرة الدماء والمرض، وبخيالاته المنطلقة الى اقصى الحدود ، لتعمق قدرتها على التجوال في كل الفيافي والقفار والرؤى ، عجزه المرير حتى عن المشي لخطوات قليلة .. ومغادرة هذه السرر الدموية المعذبة ..

اه لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دم
ميت الساقين محموم الجبين
تأكل الظلماء عيناي ويحسوها فمي
تائها في واحة خلف جدار من سنين
وانين
مستطار اللب بين الانجم .

وبرغم رهبة العذاب في كل هذه الاغنيات ووحشة الاسى .. فاننا نلمس فيها تلك الشفافية الشعرية التي استعادها الشاعر من جديد في هذا الديوان الاخير بعدما تاهت عنه في اقبية (المعبد الغريق) المعتمة وفي سراديب (منزل الاقنان) الصوفية الموجعة .. وكان باستطاعة السياب ، بعدما استعاد في (شناشيل ابنة الجلبي) صوته الاول ، مواصلة الرحلة نحو الذرى .. غير ان المرض الزاحف من القدمين ، شللا كئيبا راعبا ، اتم رحلته نحو الذرى ، قبل ان يقطع السياب الشوط الاهم في رحلة الشعر الطويلة المريرة .. الشوط الذي يتجلى فيها الصفاء والنقاء وجوهر الشعر .

وكما اختطف الموت جون كيتس وبيرون وشيللي وبروك في ريعان الشباب . انقض كالصقر الالهي ليختطف عنيميدا الرقيق الجميل الروح ، عله يغني تراتيله الرائعة تلك في اولمب الالهة ، بعدما اجحفه عالم البشر ادنى حقوقه وابسطها .. انقض الصقر الالهي على شاعرنا وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين .. اختطفه .. ولكنه ترك لنا عطاء ثريا من الشعر والاقاصيص والترجمات والدراسات .. ينبغي علينا ان نعود اليها في فسحة من الوقت ، لنتأملها ، وندرسها ، ونمسح الرغام عن كنوزها الوفيرة .

القاهرة

صبري حافظ

منشورات ((دار الاداب))

تطلب فـي القاهرة

مـــن

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)